
8
قصص الصحابة
الفتى الحكيم
سلوى العنانى
دار اللطائف

الفتى الحكيم

(مصعب بن عمير)

[لقد رأيت مُصعبا هذا .. وما بمكة فتى أنعمَ عند أبويه منه ،
ثم ترك ذلك كله حُبا لله ورسوله] صدق رسول الله ﷺ

هو فتًى من أبهى فِتيانِ قريشٍ مظهرًا وأكثرهم أناقةً ووسامةً .. وهو فوق هذا من أحْكَمِ شبابِ جيلِه وأكثرهم رزانةً ووقارًا ورجاحةَ عقلٍ ..

وُلِدَ وشبَّ في أسرةٍ من أكثرِ أُسَرِ مكةَ ثراءً .. وكان موضعَ تدليلٍ من أبويه فمنحاه من أسبابِ الرفاهيةِ والأناقةِ كما منحته الحياةُ جميلَ القوامِ والبشرةِ والملامحِ ليصبحَ زينةَ المجالسِ ومضربَ الأمثالِ..

هو (مصعب بن عمير) .. (مصعب الخير) .

ذهبَ (مصعبٌ) في رحلةِ صيدٍ خارجَ مكةَ .. ولما عادَ شعرَ بأن شيئًا جَلَلاً قد حدثَ .. فالناسُ يتكلمون .. يتهامسون ويتصايحون .. والجميعُ يحكي عما حدثَ من يومين عندما

اعتلى (محمدُ الأمين) جبلَ الصفا ونادى في القبـائلِ .. ولما اجتمع الناسُ حوله قال لهم : "إني رسولُ الله إليكم خاصةً وإلى الناسِ عامةً" ولأن مصعبًا كان شابا حكيما وحَصِيفا .. فقد أراد أن يعرفَ أكثرَ ليكون حكمُه على الأمرِ صحيحًـا وسليمًا . وكان لابدَّ أن يسألَ .. فسـأل صديقـه (جبيرَ بـنَ مُطْعم) .. وأخبره الأخيرُ أن (محمدًا) قال إنه يتلقى وحيًا من ربه وأنه تلا بعضَ هذا الوحي ..

فسأله (مصعبٌ): وماذا قال؟

وتلا جُبيرٌ :

﴿فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِـــينَ وَأَنْــذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِـــينَ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾

[الشعراء : 213 – 215]

وتأمل (مصعبٌ) هذا القولَ وتَعَجَّبَ .. إنه حديثٌ حلـوٌ طليٌّ.. لم يسمعَ مِثلَه من قبل.. فهل هو حقًّا وَحْيٌ مِـنْ عِنْـد الله.. لما لا ؟! إن محمـدًا معـروفٌ بالأمانـةِ والصـدقِ مـع الناسِ .. فكيف يكذبُ على الله؟

راح (مصعبٌ) يفكِّرُ وقد ملأ عليه هذا الأمرُ عقلَه وقلبَه فزهدَ في الطعامِ .. وجفـاه النـومُ .. وامتـلأ رأسُـه بالأسـئلةِ وصَمَّمَ في الصباحِ أن يجدَ لأسئلتِه الحائرةِ إجابةً شافيةً .

إلى دارِ الأرقمِ بنِ أبي الأرقمِ) قادته قدماه كما قـادَه قلبُـه فجلـسَ بـين يـدي رسـولِ الله يسـأله ويسـمع منـه صـادقَ الحديثِ .. وقبلَ أن يغادرَ (مصعبٌ) المكـانَ كـان قـد نطـقَ بالشهادتين أمامَ رسولِ الله.

كان (مصعبُ بنُ عميرٍ) سيدًا في قومه ، ثريًّـا ، مرهـوبَ الجانب ، فهو لا يخشى غضبَ سـادةِ قريـشٍ مـن إسـلامِه ، لكنه كانَ فقط يخشى غضبَ أمه (خُناسَ بنتِ مالكٍ) الـتي كانت واحدةً من أثرياءِ مكةَ المعدودين يهابها سـادةُ قريـشٍ ويحسبون لها ألفَ حسابٍ، وكانت امـرأةً عنيـدةً متطرفـةً في إيمانِـها بآلهتـها الحجريـةِ الـتي تسـجدُ لهـا وتحـرصُ علـى إرضائِها .. لهذا فقد أخفى (مصعـبٌ) عنـها إسـلامَه فكـان يصلي سرًّا ويتسللُ في المساءِ إلى (دار الأرقم) فيـتزودُ مـن لقاءِ الرسولِ الكريمِ بزادِ الإيمانِ . لكنه كانَ من المسـتحيلَ أن يظلَّ الأمـرُ سـرًّا في مكـةَ .. هـذه المدينـةُ الـتي اهـتزت

جنباتُها بهذا الأمرِ العظيمِ - نـزولِ الوحـي علـى محمـدٍ-
وعلمت (خُنـاسُ) بخبـرِ تـرددِ ابنـها علـى (دارِ الأرقـمِ) ..
وسألته وأتتها الإجابة : (لقد آمنتُ بالله الواحد الذي خلق السمواتِ والأرضَ والليلَ والنهارَ وجعلَ الحياةَ والموتَ) .

ووقف (مصعبُ) ثابتًا شامخًا مزهوًّا بإيمانِه وباتباعِه لنـورِ الهُدَى.. وازدادت ثورةُ الأمِّ وأمرت عبيدَها أن يقيدوا سـاقَي ابنها وأن يُلْقوا به في مكانٍ مظلمٍ من البيتِ ..

ولم تهتزّ شعرةٌ مِن رأسِ الفتى المؤمنِ الذي أنـارَ الإيمـانُ ظلمةَ محبسِه والذي أشـبعه ورواه ذكـرُ الله.. فلـم يَجُـعْ ولم يظمأْ .. وانتظرَ رحمةَ الله ..

وجاءته رحمةُ الله فتمكـن مـن الهـربِ وانضـمَّ إلى قافلـةِ المهاجرين إلى الحبشـةِ إلى أن أذِنَ اللهُ لهـم بـالعودةِ إلى مكـةَ حيثُ كان رسـولُ الله وصحبُـه يواصلـون دعوتَـهم للديـن الحقِّ ..

وما أن دخلَ (مصعبُ بنُ عميرٍ) مكةَ حتـى قَصَـدَ النـبيَّ الكريمَ.. يُلقى في أحضانِه همومَ رحلتِه ويتزوَّد مـن حديثـه ومن نصيحته .. وجلسَ (مصعبُ) وَسَـطَ رفاقِـه المسـلمين

الذين تألموا لمظهرِه وثيابِه.. وشعرَ الرسولُ بما يدورُ في أذهانهم.. فأشرقَ وجهُه الشريفُ بابتسامةٍ عذبةٍ وقال : (لقد رأيت مصعبًا هذا ، وما بمكةَ فتى أنعمُ عِنْدَ أبويه منه .. ثم ترك ذلك كله حبًّا لله ورسولِه) .

وكانت عودةُ (مصعبٍ) إلى مكةَ فرصةً كي تحاول أمُّه أن تَرُدَّه عن دينه .. لكن هيهات للقلبِ العامرِ بنورِ الله أن يبحثَ عن مغرياتِ الدنيا وكان الفراقُ بين الفتى وأمِّه ..

كانت مجموعةٌ من أهلِ يثربَ قوامُها اثنا عَشَرَ رجلا قد بايعوا الرسولَ – عليه السلامُ – عند العقبةِ ليكونوا نواةً مسلمةً لمدينةٍ مباركةٍ (مُنَوَّرَةٍ) بنبيها .. وعاد هؤلاءُ ينشرون دعوةَ الإسلامِ بين أهليهم .. واستجابَ الكثيرُ لدعوتهم .. لكنهم كانوا يحتاجون لفقيه بينهم يعلِّمهم ويُرْشِدهم لصحيحِ الدينِ .. فأرسلوا إلى النبي أن (ابعثْ إلينا رجلاً من أصحابِك يفقِّهنا في الدينِ ويعلِّمنا القرآنَ) فمن هو الرجلُ الذكيُّ التقيُّ القويُّ الإيمانِ الحصيفُ الحافظُ لكتابِ الله دَمِثُ الخُلُقِ حسنُ البيانِ الذي يصلحُ لهذه المهمة؟!

واختار النبيُّ (مصعبَ بنَ عميرٍ) لهذه السفارةِ وهناك مَنْ

هُمْ أكبرُ منه سِنًّا وأقدمُ إسلاما .. لقد وَجَدَه أهلا لهذه المهمةِ .

ويغادر (مصعبُ بنُ عُميرٍ) مكةَ مرةً أخرى .. يغادر البلدَ التي وُلِدَ فيها والتي عاشَ فيها صباه وشبابَه .. وتركها ليتولى مهمةً جديدةً في سبيلِ الله .

لابد أن (مصعبًا) كان مشغولا بالمهمةِ التي هو مقبلٌ عليها فلم يشعرْ بمشقةِ السفرِ .. ولابد أنه كان يفكرُ فيما يمكنُ أن يلاقي من صِعابٍ ومشاقٍّ .. لكنه كان – بغير شَكٍّ – واثقًا من تأييدِ ربه له.. ولابد أنه كانَ يستعيدُ نصائحَ رسولِ الله ودعاءه له ..

وعندما لاحت نخيلُ يثربَ من بعيدٍ رفعَ (مصعبٌ) كَفَّيه إلى السماءِ داعيًا ربَّه أن يوفّقه إلى ما يحبُّ ويرضَى .

واختار (مصعبٌ) منزلَ (أسعدَ بنِ زرارةَ) ليكون مقرًّا لإقامته كما اختارَ صاحبَ البيتِ ليكون عونًا له في مُهمته .. ولم لا وهو أحدُ المبايعين في بيعةِ العقبةِ ؟!

لابد أنها كانت مهمةً شاقةً وصعبةً فهو ليسَ أمامَ بناءٍ

قديمٍ يهدمُه ويبـني غيرَه على نَسَقٍ جديدٍ .. لكنه أمامَ عقيدةٍ .. نعم .. عقيدةٍ لها في نفوسِ أصحابِها تاريخٌ وذكرياتٌ وتقديسٌ وتكريمٌ فكيف يَسْتَلُّ هذه العقيدةَ المتأصلةَ ويضع مكانها عقيدةً أخرى ؟ .. إنها فعلا مهمةٌ صعبةٌ .

وتمضي الأيامُ (بمصعبِ بنِ عُمَيرٍ) ينتقلُ بين الناسِ في الدورِ والأسواقِ .. في أماكنِ العملِ وفي تجمعاتِ التجارةِ .. يدعوهم إلى سبيلِ الله بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ ويجادلُهم بالتي هي أحسنُ.. وتُثْمرُ الكلماتُ المضيئةُ نورًا بعد نورٍ .. وتتلألأ قناديلُ الإيمانِ في القلوبِ قلبًا بعد قلبٍ حتى يكاد لا يخلو بيتٌ في يثربَ كلها من إنسانٍ يردد أن (لا إلَهَ إلا الله .. محمدٌ رسولُ اللهِ).. وعندما أتى موسمُ الحجِّ .. شهدت الصحراءُ بين مكةَ ويثربَ قافلةً مباركةً يزيدُ عددُ أفرادِها عَلى سبعينَ مُسلمًا تبددُ تكبيرتُها سكونَ الكونِ .. الله أكبرُ .. الله أكبرُ .. لا إلهَ إلا الله ..

متاعبُ عديدةٌ تعرضَ لها (مصعبُ بنُ عُميرٍ) في أثناءِ هذهِ المهمةِ الجليلةِ ، ومواقفُ سَجَّلها التاريخُ بوقائعها

وأخرى ابتلعتها الأحداثُ فراحت في طَي النِّسيان ..
ولنقفْ هنا عِنْدَ الموقفِ الذي أسلم فيه واحدٌ من أشْرافِ العربِ المعدودين هو (أُسَيْد بن حُضَير) سيدُ الأوسِ المعروفِ بالكرمِ والجودِ والشجاعةِ في إبداءِ الرأي والاستبسالِ في الحربِ.

كان يومًا عاديًّا في حياةِ (مصعبِ بنِ عُمَيرٍ) في (يثربَ).. فها هو يجلسُ في منزلِ (أسعدَ بن زُرارةَ) يحيطُه المسلمون .. ويستمعون إليه قارئًا للقرآنِ ومُجيبًا على الاستفسارات مرددًا لما عرفه من سنةِ رسولِ الله عليه السلامُ .. كان المستمعون وكأن على رُؤوسهم الطيرَ يتطلعون إلى وَجْهِ (مُصْعبٍ) الذي أناره الإيمانُ ويستمعون إلى صوتِه الخاشعِ .. واقفين معه عِنْد كُلِّ لفظٍ قرآني وعند كل توجيهٍ نبوي.

وبين الحينِ والحينِ .. يقطعُ سكونَ المكانِ طَرْقٌ خفيفٌ على بابِ الدارِ يستأذنُ صاحبُه في الدخولِ والانضمامِ إلى مجلسِ الهُدَى والإيمان، وفجأةً يسمعُ الحضورُ دقًّا عنيفًا متتابعًا .. وقامَ صاحبُ الدارِ يستطلعُ الأمرَ فإذا (بأسيد بنِ

حُضيرٍ) شاهرًا حربتَه .. تفضحُ أساريرُ وجهِـه عـن غضـبٍ وثورةٍ .. ومـا أن رأى (مصعبًـا) وقـد تحلّـقَ حولَـه مريـدوه ويستمعون إليه حتى صاحَ قائلا : (ما جاءَ بكَ إلينـا تُسَـفِّهُ ضعفاءنـا وتغيّرُ أحوالنـا؟! اعتزلنـا إن كـان لـكَ بنفسِـك حاجةٌ ..)

وبهدوء المؤمـنِ الواثـقِ .. الذكـيِّ الحكيـمِ .. ردَّ عليـه (مصعبٌ) : "أو تجلس فتسمع .. فإن رضيتَ أمـرًا قبلتَـه .. وإن كرهتَه كَفَفْنَا عَنْك ما تكره" .

يا له من ذكاءٍ ومنطـقٍ عـاقلٍ .. لقـد رأى (مصعـبٌ) أن العقلَ هو اللغةُ التي يجب أنْ يتحدثَ بها مع هذا العاقلِ .. ولأنه واثقٌ من صدقِ دعوتِه .. فقـد كـانَ واثقًـا مـن نجاحِ مهمته ..

وأدار (أسيدٌ) الأمرَ في عقلِه .. فهذا غريبٌ عن ديارنا وله عندنا واجبُ الضيافـةِ .. ثـم هـو يدعونـي لأسمع قبـل أن أصدرَ حُكْميَ .. وهذه هي الحكمةُ وعينُ العقلِ ..

وأسندَ (أسيدٌ) حربتَه إلى الجدارِ وجلسَ يستمعُ إلى قـولِ (مصعبٍ) .. يسألُ ويسمعُ الإجابةَ .. ويديرُ في رأسِه فيجـده

منطقَ عقلاءٍ وقولَ حكماءٍ .. ويشرقُ النورُ في قلبِ (أسيدٍ) ويتهللُ وجهُه بالفرحةِ ويتجه بالحديثِ إلى (مُصْعبِ بنِ عُميرٍ) :

(ما أحسنَ هذا الكلامَ وأجملَه .. كيفَ تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟)

ويقفزُ قلبُ (مصعبٍ) من الفرحةِ والرِّضا ويجيبه :

(تغتسلُ فتتطهرُ وتطهرُ ثوبَك ثم تشهدُ شهادةَ التوحيدِ .. وتصلي) وأسرع (أسيدٌ) فاغتسلَ وطهرَ ثيابَه ونطقَ بالشهادة أمامَ (مصعبٍ) الذي عَلَّمه الصلاة .. وقامَ الرجلُ ليصليَ ركعتين مُوَدِّعًا جاهليتَه مستقبلا أيامَ الإسلامِ والتوحيدِ ..

ولنعد لمتابعةِ هذا الصحابي العظيم (مصعبِ بنِ عميرٍ) .. فقد عادَ مع قافلةِ النورِ إلى مكةَ .. وما أن دخلها حتى أسرعَ إلى النبيِّ يملأ عينيه وقلبَه من وجهه الكريم .. راح ينقلُ إليه البُشْرَى .. فقد انتشرَ الإسلامُ في (يثرب) وأعلنَ زعماؤها وأشرافُها وقادتُها إسلامَهم.. لقد ثبتَ وجودُ الإسلامِ في (يثربَ) ..

ويرجعُ (مصعبُ بنُ عميرٍ) إلى (يثربَ) ليكونَ في استقبالِ رسولِ الله مع إخوانه من المسلمين الأنصار .. وتسعدُ هذه المدينةُ المباركةُ بالنبيِّ المباركِ ويتغير اسمُها إلى (المدينةِ المنورةِ) .. فهي حقًّا مُنَوَّرَةٌ بالنبيِّ (محمدٍ) وبِصَحْبِه الكرامِ .. ويؤاخي النبيُّ بين المهاجرين والأنصارِ ويؤاخي بين (مصعبٍ) وبين (أبي أيوبِ الأنصاري) ..

ويستقر الحالُ بالمسلمين في المدينةِ المنورةِ .. لكن الغيظَ والحقدَ لا يهدآن في نفوسِ مشركي مكةَ فيجهزون لغزوِ المدينةِ أملاً في تحطيمِ أركانِ هذه الدعوةِ .. ويلتقي الفريقان في (غزوةِ بدرٍ) والتي كانت هزيمةً نكراءَ للمشركين .. عادوا بعدها إلى مكةَ يجرون أذيالَ الخيبةِ والفشلِ ويندبون قتلاهم ويرسلون في فداء أسراهم..

كان (أبو عزيز) شقيق (مصعبِ بنِ عُمَيرٍ) واحدًا من حملةِ لواءِ المشركين في بدرٍ وأسره المسلمون . ولما عَلِمتْ أمه بهذا دفعتْ له أربعةَ آلافِ درهمٍ فِدَاءً .. وكان هذا أغلى فداءٍ قُدِّم لفارسٍ من فرسانِ قريشٍ ..

لكن معركة (بدر) لم تكن نهايةَ الصراعِ العسكريِّ بين

المسلمين ومشركي مكـةَ بـل إنـها أشـعلتْ نـارَ الحقـدِ في قلوبـهم فجمعـوا القبـائلَ وجَيَّشُـوا الجيـوشَ وبـالغوا في التسليحِ وخرجوا يطلبون الثأر من المسلمين .

وكان اللقاءُ الثاني في (أُحُـدٍ) .. يومـها خـرجَ المسـلمونَ يدافعون عن (المدينةِ المنورةِ) عنـد جبـل (أُحُـدٍ) .. وأعطـى رسولُ الله اللواءَ (لمصعبِ بنِ عميرٍ) واثقًـا أنـه خـيرُ مَـنْ يقاتلُ للحفاظِ عليـه .. واصطفـت جنـودُ الإسـلامِ وطلـبَ النبيُّ من الرماةِ الصمودَ في أماكنهم حتى يعطيَ أوامرَه بغيرِ ذلك .. وتحقق النصرُ للمسلمين في أولِ المعركةِ وانسحبتْ جنودُ الشركِ مخلفةً وراءها الغنائمَ التي أغرتْ البعضَ بتركِ السلاحِ للظفرِ بها .. ونسى بعضُ الرماةِ تعليمـاتِ رسـولِ الله وظنـوا أن المعركـةَ قـد انتـهتْ لصالحِـهم فـتركوا مواقعَهم .. وينتهزُ الكفارُ هذه الفرصةَ ويعـودوا ليـهجموا على المسلمين هجمةً راحَ ضحيتها سبعون شهيدا من خيْرةِ صحابةِ رسولِ الله منهم (مُصْعَبُ بـنُ عُمـيرٍ) و(حمـزةُ بـنُ عبدِ المطلبِ) .

فكيف كان استشهادُ (مصعبِ بنِ عميرٍ) ؟

التفتْ مجموعةٌ من الصحابةِ حولَ النبيِّ يدافعون عنه وهم يعلمون أنه هدفٌ لهؤلاءِ المعتدين الآثمين .. وكان (مصعبٌ) – حاملُ اللواءِ – هو أكثرَ الصحابةِ استماتةً في الدفاعِ عن النبيِّ الذي آمن به .. وكان ينادي بأعلى صوتِه (وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرسلِ) وقد أكرمه الله بأن جعلها نَصًّا قرآنيًّا نزلَ به الوحيُ ..

وتصدى أحدُ فرسانِ المشركين (لمصعبٍ) فأصابه في يمنه وقبل أن تسقط الراية تلقاها المؤمنُ المجاهد بيسراه .. فهجم عليه هذا الفارسُ فأصابَ يُسْراه .. ويحتضنُ (مصعبٌ) الرايةَ ضَانًّا عليها أن تسقطَ ما دامَ في صدرِه قلبٌ ينبضُ ..

وينقضُّ الفارسُ المشركُ برمحِه ليغرسه في جسمِ (مُصْعبٍ) فيسقطُ شهيدًا محتضنًا رايته ..

وتنتهي المعركةُ .. ويقفُ الرسولُ عليه السلامُ ومعه صحابتُه وسطَ جثثِ الشهداءِ .. وتجري دموعُهم أسفًا على فِراقِ إخوانِهم المجاهدين في سبيلِ الله ..

وتتمتمُ ألسنتهم :

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾

[الأحزاب : 23]

ويجولُ الرسولُ عليه السلامُ ببصرِه بين صحابتــه ورفاقِ جهادِه من الشهداءِ ويقــولُ : "إن رســولَ الله يشــهدُ أنكــم الشهداءُ عند اللهِ يومَ القيامةِ" وأقبلَ على صحابته يقــول : "أيها الناس زوروهم وأتوهم وسلموا عليهم .. فــو الــذي نفسي بيده لا يُسَلِّمُ عليهم مسلمٌ إلى يــومِ القيامــة إلا رَدُّوا عليه السلامَ" .

ولما أراد أصحابُ (مصعبٍ) أن يكفنوه في بُرْدته .. كانت إذا غَطُّــوا بــها رأسَــه كشــفتْ رجليَــه ، وإذا غطــوا رجلَيــه انكشفت رأسَه.. فقال لهم رسول الله : "اجعلوهــا ممــا يَلِــي رأسَه" ثم نظرَ إلى وجه مصعبٍ وقد علاه الترابُ وقال :

"لقد رأيتك بمكةَ ، ومــا بــها أرقُّ حُلَّــةٍ ولا أحســنُ لُمَّــةٍ منكَ .. ثم هأنتذا شَعْثُ الــرأسِ في بُــرْدٍ" . صــدق رســول الله .